Translations | ترجمات

وليام جيمس والتعليم

William James and Education

رونالد ل. بوديشي[١]
Ronald L. Podeschi
ترجمة: سفيان البطل[٢]
Soufiane EL BATAL

(1) Ronald L. Podeschi, William James and Education, The Educational Forum, Volume 40, issue 2, pages 223-229, 1976. (Published online: 30 Jan 2008).

(٢) دكتوراه في الفلسفة البراغماتية، باحث وعضو بمختبر الفلسفة والمجتمع في جامعة ابن طفيل، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، القنيطرة-المغرب. البريد الإلكتروني:
Soufiane.elbatal@hotmail.com

لم يكن لدى وليام جيمس كلمة مألوفة في المدارس المهنية للمعلمين خلال القرن العشرين. وإنما يظهر بين الحين والآخر في الاقتباس، ولكن في الغالب، فُقِدَ جيمس في هوامش الفلسفة التربوية الأمريكية في القرن العشرين. لقد كانت هذه خسارتنا، وهي خسارة كبيرة. في العقد الماضي، أعاد مجال الفلسفة اكتشاف جيمس ودَرَسَ أهميته للحركات الفلسفية المعاصرة[1]. لقد حان الوقت لكي نبدأ بالكشف في التعليم عن وليام جيمس واستكشاف كتاباته لأهميتها في المشهد المعاصر في التعليم الأمريكي.

الربط الذي أُجري تاريخيًا بين وليام جيمس والتعليم كان غير مباشر أكثر منه مباشر. يُنظر إلى جيمس في المقام الأول على أنه فيلسوف براغماتي ومؤسس علم النفس التجريبي الذي كان رائدًا مؤثرًا في المعلم الأمريكي لهذا القرن: جون ديوي. إن ظِلال ديوي وتأثيره الضخم في التعليم بالقرن العشرين تضمنت جيمس في هذا الدور التاريخي، ولكن في نفس الوقت حُجبت رؤية أفكار جيمس الخاصة. مثل ديوي، كان جيمس فيلسوفًا وطبيبًا نفسيًا رائدًا. وعلى عكس ديوي، لم ترتكز كتاباته بشكل كبير على الروابط المختلفة والحيوية مع مؤسسة التعليم الرسمي. من المؤكد أن جيمس تحدث إلى المعلمين في زمانه، وكان يقوم بذلك بشكل رائع، لكنه كان مثل صديق زائر. أما ديوي كان عليه أن يصبح مثل الحاكم المنتخب للمعلمين الأمريكيين، ويظل جيمس مجرد صديق جيد.

أحاديث للمعلمين، تعد محاضرات جيمس الشهيرة للمعلمين حول علم النفس وكتابه الوحيد عن التعليم، ولقد مَنحت جيمس شهرة في التعليم على مرِّ السنين. هذا الاعتراف كان عموما من خلال عرض الكتاب على أنه كتاب كلاسيكي جميل، الأمر الذي يدل على قدرة جيمس على التحدث بشكل هادف إلى المعلمين حول الموضوعات المعقدة للتعليم والتعلم. في عام ١٩٦٧ صدر مقال لا زال يعامل جيمس بنفس الطريقة النمطية عند التركيز على **أحاديث للمعلمين**.

> «...الأكثر أهمية وإثارة -وبالتأكيد أجمل كتاب كتب للمعلمين على الإطلاق ... يا لها من معاملة لهؤلاء المعلمين كانت له من قبلهم- امتياز قراءة هذا الكتاب الدافئ والودي والملهم لأول مرة ... تتمثل عبقرية جيمس في قدرته على تقديم أفكاره التجريدية والفلسفية والنفسية للغاية في مثل هذا النثر النابض بالحياة والرائع والجميل تمامًا»[2].

(1) For a comprehensive review of philosophy's rediscovery of James, see James M. Edie, "William James and Phenomenology," Journal of Metaphysics (Fall 1971): 481-526.

(2) A. L. Gates, "Educational Classic: Talks to Teachers," NEA Journal 56 (October 1967): 34-35.

نشأ ارتباط غير مباشر آخر بين جيمس والتعليم الأمريكي حين وُضِعَ جيمس على أساس أنه بطل ثقافي أمريكي، الذي لديه نوع من الهوية والطبع يجب على التعليم أن يسعى إليهما. وهناك مقال صدر عام ١٩٦١، بعنوان "تأثير وليام جيمس على التعليم الأمريكي"، يصور هذا المنظور المستمر:

> «لقد كان تأثيرًا لم يمارس بشكل مباشر من خلال كتابات محددة حول موضوعات تعليمية، بل بالأحرى من خلال تأثير شخصية نابضة ومتحررة جعلت نفسها محسوسة في العديد من مجالات الحياة الأمريكية. فقد كان جيمس مثالًا رائدًا، أكثر من أي عامل منفرد آخر، لقد ساعد على "جعل العالم آمنًا" للإصلاحيين البراغماتيين الذين خلفوه ... لقد كان هذا الموقف الحماسي لمواجهة عالم متغير مليء بالتحديات والمخاطر والمغامرات هو أكبر مساهمة لجيمس في التعليم الأمريكي ... وفوق كل شيء، أعطانا جيمس مثالًا على تلك الندرة الأبدية: الفرد العظيم»[1].

والآن، دعونا نذكر بوضوح أنه لم يتم الجدل على أن هذه الأنواع من وجهات النظر السابقة حول جيمس والتعليم لا أساس لها من الصحة، بل لقد كان جيمس فردًا نادرا تستحق حياته الدراسة، فلا غرابة أن يطلق على **أحاديث للمعلين** مسمى الكتاب الكلاسيكي في التعليم. إن مساهمة جيمس لديوي لا لُبْسَ فيها، إن الخطأ في هذه المعالجة النمطية بالتعليم هو أنه أبقى جيمس في دور صديق على الهامش وساعد في التستر على مساهماته الأكثر أهمية في الفلسفة التربوية والنظرية.

من المفارقات، أنه إذا كان هنا اليوم، فإن آرائه حول التعليم الأمريكي في السبعينيات من القرن الماضي كانت ستغير ملامح الإدراك القديم. وبدلًا من وصف فلسفته بأنها تجسد ثقافة العالم الجديد ومرحلة من الوعي القومي، فإن العديد من أفكاره الأساسية تتعارض مع الافتراضات الأمريكية المهيمنة. إذا كان يتحدث إلينا اليوم عن التعليم الأمريكي، فإن وجهات نظره ستقودنا إلى التشكيك في بعض الافتراضات والقيم الكامنة وراء التعليم في أمريكا المعاصرة.

(1) H. A. Larrabee, "William James' Impact Upon American Education," School and Society 89 (February 25, 1961): 84-86.

المعرفة العلمية والموضوعية

مثل أي شيء آخر، سنجد بحضور جيمس اليوم يكتب ويتحدث إلى الجمهور العامي والمهني هو حول الافتراضات الغير المدروسة للنزعة العلمية في التعليم المعاصر. لقد كان سيجد أمريكا التي جعلت من التعليم إحدى أعلى أولوياتها من حيث القيمة المؤسسية حاولت تحميله بحيادٍ علمي معصوب العينين، وتملؤه بالقياس الكمي، وتَضُخُّهُ بجرعات هائلة من حوسبة درجات الاختبار. إن هذا من شأنه أن يضايقه. وهذا الإنسان الذي كان يُنظر إليه تاريخيًا على أنه مؤسس مجال علم النفس التجريبي، كان سيهاجِم فلسفيًا وشخصيًا وكذا روحيًا. ربما نسمع من إحدى محاضراته نوع البيان الذي اقتُبِسَ على مر السنين ولكنه يأتي الآن في الوقت المناسب أكثر من أي وقت مضى:

> «أقول إلى جانب ذلك أنك ترتكب خطأ فادحًا، خطأ فادحًا جدًا، إذا كنت تعتقد أن علم النفس، كونه علم قوانين العقل، هو شيء يمكنك من خلاله استنتاج برامج ومخططات ومناهج تعليمية محددة للاستخدام الفوري في الفصل الدراسي. علم النفس هو علم، والتعليم هو فن؛ والعلوم لم تنتج الفنون مباشرة من نفسها. يجب على العقل المبتكر الوسيط خلق الوضعيات بتوظيفاتها الأصيلة»[1].

علم النفس التربوي في هذا البلد، مثل علم النفس، له جذور تاريخية مهمة في كتاب جيمس **مبادئ علم النفس**، أي عمله الرائد الذي استُخدِم باعتباره مرجعًا في مهد علم النفس التجريبي. فقط مؤخرًا رُفعت **مبادئ علم النفس** إلى دور عمل فلسفي مهم، وتم تفسير جيمس الآن على أنه كافح مع الأسس الفلسفية لعلم النفس كعلم. يُظْهِرُ مِثْلُ هذا التفسير أن جيمس يُعَبِّرُ بشكل مؤلم عن وعيه بأن علم النفس لا يمكنه الهروب من كونه ميتافيزيقي بمعنى أن الافتراضات الفردية موجودة دائمًا، وإن كانت مخفية. يشرح المعقب الأخير:

> «يستخدم جيمس كلمة "ميتافيزيقا" للإشارة بشكل أساسي إلى...بعض الفروق والافتراضات التي أجبر على فحصها على الرغم من أنه ينبغي استبعادها من خلال منهجه التجريبي للبحث ... "الميتافيزيقا" بالمعنى الذي يمارسها في **المبادئ**، ليست بحثًا

(1) William James, Talks to Teachers (New York: Dover Publications, 1962), p.3.

عن كيانات ما وراء التجريبية، أو قوى سببية فوق تجريبية، أو تعميمات كونية، لكن بالأحرى التحقيق الذي لا مفر منه للافتراضات الضرورية لمنهجه النفسي. تثبت مثل هذه الادعاءات وجودها "في وصفنا للحقائق الظاهراتية" ولا يمكن تركها دون مناقشة»[١].

لن يتجاهل جيمس بيانات اليوم. في الواقع، لن تسمح له قوته العقلية بأن يتم الاستيلاء عليه من خلال أمن البيانات الكمية وحدها، فالأرقام لن تقترب بدرجة كافية من حقيقة التجربة الإنسانية بالنسبة إليه. كان ليرغب في الدعوة إلى تجريبية راديكالية من شأنها أن تضع تركيزًا كبيرًا على وصف الظاهرة الإنسانية بدقة وبشكل كامل. قد نسمعه يقول:

«في فشلهم في تحقيق مثل هذه الدقة، تجاهل «التجريبيون» المزعومون المسؤولية الأساسية لأي تجربة أصيلة. لقد تجاهلوا دفئ المشاعر الجسدية، واستمراريتها، وأنشطتها المناسبة، والتي تشارك جميعها في الوعي الذاتي الفردي»[٢].

تستند التجريبية في هذا البلد إلى الافتراض النموذجي للانقسام بين الذات والموضوع والنزعة الأمريكية الناتجة عن الفصل قوي بين «المعرفة الموضوعية» و«المعرفة الذاتية». هذا يكمن وراء التعليم الأمريكي وتركيزه السائد على البيانات الموضوعية وقابلية القياس والتحديد الكمي. ليس من الصعب أن نرى كيف يتأثر النظام التعليمي الأمريكي بهذا النمط من الاعتقاد عند سماع هذا التحليل من قِبَلِ باحثٍ عن الأنماط الثقافية الأمريكية:

«بالنسبة للأمريكي النوعية الأساسية هي قابلية القياس. ينظر إلى العالم بالنسبة له على أنه يحتوي على أبعاد يمكن قياسها كميًّا ... النجاح والفشل يقاس بالإحصاءات؛ كذلك مقدار العمل والقدرة والذكاء والأداء»[٣].

ما كان لجيمس أن يتجاهل تقريبًا التمييز بين المعرفة الذاتية والموضوعية. ومع ذلك، فإن غرضه من التمييز هو إبلاغ أن المعرفة الحقيقية بالكامل تحتاج إلى تجميع هذين الجانبين. لقد كانت المصطلحات المفضلة عند جيمس لهذا التمييز هي «المعرفة بالتعلم» (knowledge by acquaintance) و"المعرفة حول" (knowledge about).

(1) . James M. Edie, "William James," p. 497.

(2) . John Wild, The Radical Empiricism of William James (New York: Doubleday, 1969), p. 110

(٣) . Edward Stewart, American Cultural Patterns: A Cross-Cultural Perspective (University of Pittsburgh: Regional Council for International Education), p. 66.

«المعرفة بالتعلم»[1] هي شعور المرء بشيء ما؛ كالانطباعات المجردة؛ لأنها تحيا في تجربة ملموسة. إنها المعنى القبلي في آنية الحياة. يصبح هذا «معرفة حول» عندما يتم تصورها في معرفة العلاقات أو إدراك المعاني. وهذه تصبح إدراكًا للحقيقة فقط عند العودة إلى أفعال المعرفة الحسية المباشرة. وهكذا، فإن نوعي المعرفة يعملان ذهابًا وإيابًا مع بعضهما البعض. وهذا يعني أنه ليس من الممكن فقط أن تكون "الهوامش الغامضة" لشيء ما (تعلمية acquaintance) أكثر وضوحًا من خلال التحليل المفاهيمي (حول about)، ولكن يمكن بعد ذلك الاستيلاء على المفهوم مرة أخرى من خلال شعور جديد- وهذا يؤدي بعد ذلك إلى هامش جديد من الغموض.

اليوم، سيتحدث جيمس بقوة وبشكل خاص على قسمين في المشهد التعليمي المعاصر. أولًا، سيحاول التأثير على هؤلاء المعلمين الذين يعتمدون بشكل شبه كامل على عناصر مثل الأهداف السلوكية ودرجات الاختبار والنتائج المحوسبة والبيانات الإحصائية والعمليات المعرفية والتحليلات المنهجية. كان ليحذرهم من خطورة معادلة الوضوح بالحقيقة؛ بمعنى آخر، جعل ما يمكن تقييمه بعبارات واضحة إلى ما هو مهم في التعليم. لعله يُعبِّر عما قاله أحد منتقدي ممارسات التقييم مؤخرا: «ما نشهده في التعليم اليوم هو تصغير شامل للأهداف لإرضاء بدائية قدرات

---

(١) يقصد بها أيضًا التعلم بالممارسة، وهو المعنى الذي يدل على المعرفة بالاحتكاك والتجربة الإدراكية، وفي هذا الصدد نجد وليام جيمس يقول في **مبادئ علم النفس**: «هناك نوعان من المعرفة يمكن التمييز بينهما على نطاق واسع وعملي: قد نطلق عليهما على التوالي معرفة بالتعلم والمعرفة حول. أنا على دراية بالعديد من الأشخاص والأشياء، التي لا أعرف عنها سوى القليل جدًا، باستثناء وجودهم في الأماكن التي قابلتهم فيها. أعرف اللون الأزرق عندما أراه، ونكهة الإجاص عندما أتذوقها [...] أعرف ثانية من الوقت، عندما أشعر أنها تمر؛ وأعرف جهد الانتباه عندما أفعل ذلك؛ والفرق بين شيئين عندما ألاحظ ذلك؛ ولكن عن الطبيعة الداخلية لهذه الحقائق أو ما يجعلها ما هي عليه، لا يمكنني قول أي شيء على الإطلاق. لا أستطيع أن أنقل الممارسة (أي تجربة التعلم والمعرفة) معها إلى أي شخص لم يسبق له أن قام بذلك بنفسه. لا أستطيع أن أصفها، أو أجعل الرجل الأعمى يخمن ما هو اللون الأزرق، أو أعرّف للطفل قياسًا منطقيًا، أو أخبر الفيلسوف عما هو عليه، ويختلف عن الأشكال الأخرى للعلاقة». ترجمة بتصرف، انظر:

William James, The Principles of Psychology, Vol. 1, new york, henry holt and company, 1890, printed in the united states of America, p. 221.

وفي كتاب **البراغماتية** لوليام جيمس نجده يقول: «هناك طريقان لمعرفة الأشياء، معرفتها بطريقة مباشرة أو بديهيا (حدسيًا أو ذوقيًا) ومعرفتها تصوريًا (ذهنيًا) أو تمثيلًا ونيابةً. وعلى الرغم من أن مثل هذه الأشياء كالورق الأبيض أمام أعيننا يمكن أن تعرف بالبداهة، إلا أن معظم الأشياء التي نعرفها، كالنمور الموجودة الآن في الهند مثلًا، أو النظام المدرسي للفلسفة، لا تعرف إلا تمثيلًا، أو نيابةً، أو ركزًا». وليام جيمس، البراجماتية، ترجمة محمد علي العريان، الطبعة الأولى ٢٠١٦، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ص. ٢١٩.

أما في كتاب **معنى الحقيقة** نجده يقول: «يقول «جروت»: يمكن أن تتم معرفتنا بطريقين، بمعنى آخر نستطيع الحديث عن الموضوع بطريقتين من طرق المعرفة، ونعبر عنهما بعبارتين؛ فنستطيع القول «نعرف هذا الشيء كأن يكون رجلا مثلا.. أو نقول «نعرف كذا وكذا عن الشيء أو الرجل مثلًا. تفرق اللغة دائمًا وفق تركيباتها النحوية بين طريقتين أو العبارتين والمقصود بمفهوم المعرفة. تقصد الطريقة الأولى المعرفة بما هو ظاهر أو مألوف، وترتبط بالظواهر الحسية، وأقل قيمة فكرية من الثانية. وتمثل معرفة شيء معين عن طريق ظهوره أمام الحس أو عن طريق تمثله وإعادة تصوره كمجرد فكرة. المفهوم الثاني للمعرفة نعبر عنه في أحكامنا والقضايا، ويكون مجسدًا في التصورات أو في المفاهيم دون وجود الموضوع المقصود أو مثوله أمامه. ويعد في أساسه المفهوم النظري للمعرفة». وليم جيمس، معنى الحقيقة، ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ص. ٣٣.

القياس لدينا. لقد كسبنا القليل جدًا وخاطرنا كثيرًا إذا سمحنا بتحديد أهدافنا للتعليم من خلال قدرتنا على القياس»[١].

على الجانب الآخر، سيتعين على أنصار جيمس أن يتضمن بعض هؤلاء المؤيدين المتحمسين لما يسمى بالتعليم الجديد، الذين، في تمردهم على الأسبقية الغربية للتفكير العقلاني والمفاهيمي، يدعون بقوة إلى "الذهاب مع مشاعر المرء". كان جيمس سَيُحَذِّرُ من خطر إقامة المشاعر كإله جديد ليحل محل النزعة العلمية. ربما يشير إلى أن رد الفعل هذا، الذي غالبًا ما يستخدم حُجُبًا شرقية، هو في الواقع الطريقة الأمريكية النموذجية لخلق استقطابات ذات طبيعة "إما-أو". إن الاعتماد فقط على المعرفة الذاتية ليست طريقًا إلى فهم الإنسان أكثر من نظيرتها من الموضوعية فقط. قد نجد جيمس، في محاولته للتواصل مع كلا الفريقين[٢]، يذكر شيئا مثل أحد المفسرين المعاصرين له:#

> «الشعور بعدم الوضوح المفاهيمي هو أمر غامض ولا مفصلي. هذا هو السبب في أن الوضوح غالبًا يُربط بالبصيرة. ولكن هذا خطأ. إن التعبير المفاهيمي دون الإدراك المباشر هو مصطنع[٣] ويفتقر إلى التوجه العام... ومن ناحية أخرى، إن أولئك الذين تهيمن عليهم مشاعرهم تجاه شيء واحد، ويحيط بهم ضباب من الهوامش، يصبحون رجعيين ومحافظين[٤]. كل منهما يوفر شيئًا يحتاجه الآخر. عندما يُؤَسَّسُ بشكل صحيح، يمكن للتفكير المفاهيمي أن يوضح معاني منطقة محددة من الخبرة ويمكن أن يفتح آفاقًا جديدة. لكن وحده الشعور يمكنه عندئذ أن يسيطر عليه ويعطيه مكانًا في عالم متكامل ومستمر»[٥].

الحرية والبنية

يميل العقل الأمريكي أيضًا نحو استقطاب الحرية والبنية، ويميل إلى مساواة الحرية بغياب البنية. ضمن هذه المتلازمة الثقافية، يكون التعليم الأمريكي عرضة للتعامل مع مسائل الحرية والبنية كما لو كان هناك جواب بطريقة ما أو بأخرى. يتأرجح البندول التعليمي بِنَهَمٍ بحثا عن هذا الطريق الوحيد للإجابة أخيرًا على المشكلة الفلسفية القديمة المؤلمة

(1) James B. Macdonald, "An Evaluation of Evaluation," Urban Review, January 1974, p. 3.

(٢) كتبت في الأصل كلا الجماهير (audiences)، والكاتب يقصد الجمهور من ذوي النزعة الذاتية والجمهور من ذوي النزعة الموضوعية، ونحن آثرنا ترجمتها بالفريقين لسلامة المعنى ووضوحه أكثر. (المترجم).

(٣) يقصد بمصطنع، متظاهَرٌ بما ليس فيه، أي إنه مفترى. (المترجم).

(٤) محافظ بمعنى الشخص البسيط والساذج. (المترجم).

(5) . John Wild, ***The Radical Empiricism of William*** James, p. 70.

المتمثلة في الحرية والتحكم. لسوء الحظ، الإجابة ليست سهلة أو بسيطة كما يصور التفاؤل الأمريكي. في كثير من الأحيان، يُرسم الوهم في شكل أهداف سلوكية مرتبة ومنظمة تجعل التدريس والتعلم يبدوان أكثر قليلًا من مجرد توجيهات لصنع قهوة سريعة التحضير. من قِبَلِ الآخرين، يُروج لهذا الوهم من خلال صرخة عاطفية من أجل الحرية المطلقة للفرد غير المقيد الذي سيجد السكينة إذا كان فقط خارج نطاق السيطرة. لقد رأى جيمس من خلال هذه الأنواع من المراوغات بالجملة من معضلات الحرية والتحكم، واليوم كان سيخبر بعقله وروحه للمعلمين عن أعماق الحرية الحقيقية التي لا مفر منها.

على مستوى واحد، سيتفق جيمس مع صديقه، جون ديوي، الذي قال إن الجدال على نحو تجريدي فقط حول مشكلة الحرية والتحكم يؤدي إلى "إما-أو"[1] سطحية. بدلًا من ذلك، يجب مواجهة المشكلة في مواقف محددة مع أفراد معينين. إذ سيحاول أن يدفع إلى الاهتمام بالنقطة الأساسية التي حاول ديوي جاهدًا تجاوزها على مر السنين: يتضمن التدريس الجيد البحث عن توازن بين الحرية والتحكم الذي يعترف بالعَالَمِ الذاتي لكل طالب وفي نفس الوقت يدرك المساعدة التي يحتاجها من بيئته. يؤكد جيمس بشدة على أن الحرية لا تعني تلقائيًا بنية أقل أو أن هذه البنية بالضرورة أقل قدرًا من الحرية.

على مستوى آخر، كان سيتحدث لنا عن الحرية اليوم بطريقة مختلفة ومعاصرة أكثر من ديوي. بالنسبة لجيمس كان سيدرك قوة ما يسمى بحركة التعليم الإنساني باعتبارها اعترافًا بتيار الوعي الفريد لكل فرد والمكان الأساسي للشعور في أي عملية تعلم. بدلًا من طمس الحرية بالإيمان المطلق بالمنهج العلمي، كما فعل ديوي، كان جيمس سيستخدم مصطلحات مثل "الحرية الوجودية". [في مواجهة] ضد تيارات السبعينيات (١٩٧٠)، وعالم التكنولوجيا والبيروقراطية المتنامية، كان جيمس، الفرداني، ليؤكد على القدرة الذاتية للفرد على اتخاذ قرارات حقيقية. بالنسبة له، تأتي الخيارات الحرة في شكل "خيارات قسرية" التي من خلالها نختار مساراتنا البشرية. فالخيارات جزء لا مفر منه من وجودنا.

إن أول فعل للحرية، كان جيمس ليؤكد عليه، هو الإيمان بالحرية نفسها- اختيار الاختيار. والتصرف كما لو كان المرء حرًا يطلق الثقة والمبادرة والعمل المؤثر في الموقف. إن الهدف الأساسي للتعليم هو تعلم اتخاذ مثل هذه الخيارات التي

(1) For Dewey's most explicit statement on freedom and control, see his Experience and Education (New York: The Macmillan Company, 1938).

تحدث فرقًا في عالم مليوني[1]. في حياتنا المعاصرة، حيث التغيير نفسه هو الثابت الوحيد، كان جيمس يوجه انتباهنا إلى القوة الثمينة للشخص: الحرية في الاختيار بطريقة أو بأخرى. التعليم الذي لا يقود الشخص إلى تجربة حريته الوجودية ليس تعليما؛ بل إنه تدريب من نوع ما. بالنسبة للحياة الجيدة عند جيمس فهي: الإدراك المتزايد لـ"هذا الاتحاد الغريب للواقع مع الجِدَّةِ المثالية (ideal novelty)" والذي يكون دائمًا ممكنًا بدرجة ما على الأقل في حالة الشخص.

نظرة جيمس حول الحرية من المحتمل أن تضعه رمز «التعلم الإنساني» في مجتمعنا المعني. ومن المفارقات، أن أقوى تحذيراته اليوم قد تكون على الأرجح لأولئك الذين ينتمون إلى حركة التعليم الإنساني الذين يبشرون بعفوية، هنا والآن، و»فعل المرء لأمره» كأن الحياة لا تتكرر. بالنسبة لجيمس، هؤلاء هم الجنس اللامبالي الذي في نشوته الأبيقورية قصير النظر وأعمى عن الجانب المضني للحرية البشرية. دعونا نستعير من جون وايلد تفسيره الهام لوجهة نظر جيمس عن الحرية لنتخيل ما سيقوله جيمس ردًا على الصيحات الرومانسية الأخيرة من أجل الحرية والابتهاج.

> «الإنسان الذي يؤمن بأن الخيارات حقًا مهمة سيأخذ الحياة على محمل الجد... ما نختار القيام به بحرية يحدث فرقا؛ القضايا الحقيقية على المحك. هذا يعني «الرغبة في العيش بحيوية، على الرغم من أن الحيوية تجلب الألم...» كما الأفعال تصبح أكثر استقلالية وتُختار بحرية، فإنها تصل إلى مستويات نوعية أعلى، تتضمن المزيد من «العمل الداخلي» ... إن «الحياة الأخلاقية الأسمى ... مع ذلك قد يدعى القليلون لسماع أعبائها - التي تتألف في جميع الأوقات من خرق القواعد التي أصبحت أضيق من أن تتناسب مع الحالة الفعلية ...» عندما تعاش حقًا، تبدو الحياة «كأنها قتال حقيقي»، وفقط من خلال إلقاء أنفسنا فيها قد تصبح الحياة جديرة بأن نعيشها. بالطبع هناك ثمن يجب دفعه. لسبب واحد، فالإنسان الحر الذي يفكر ويعمل من أجل

(١) عالم مليوني (melioristic) مصطلح مأخوذ من معنى يفيد مفهوم الارتقاء (meliorism) ويوظفه جيمس كثيرًا للدلالة على الاعتقاد بأن العالم يميل إلى التحسن وأن البشر يمكنهم المساعدة في تحسينه. إن التزام وليام جيمس بالإصلاح الاجتماعي الذي يعبر عن ارتباطه الراسخ بالعدالة الاجتماعية، من خلال التركيز على التغيير الاجتماعي، لهذا الغرض سيضع مفهومه المركزي الذي يحدده بـ Meliorism، وهو مفهوم يدل على التقدم وتحسن العالم بفعل الأفراد. إن meliorism للفرد وللمجتمع، تعتبر أساس الديمقراطية الليبرالية المعاصرة وحقوق الإنسان كما أنها تعتبر مكونًا أساسيًا في الفلسفة الليبرالية. (المترجم)، انظر:

Stephen S. Bush, William James on Democratic Individuality, Cambridge University Press, 2017, p. 154-155.

نفسه سيكون معزولًا ووحيدًا ... الحياة الشاقة تواجهنا بالمعاناة والألم ... ومن أجل تحملها، يلزم «كل نوع من الحيوية والتحمل، والشجاعة والقدرة على التعامل مع شرور الحياة». لكن أولئكم الذين هم أحرار ومستقلين بقوة يمكنهم أن يستجمعوا هذه الشجاعة التي لها صفات أخلاقية خاصة بها»[1].

من الواضح أن جيمس لا يساوي بين الحرية والليبرالية. فحرية الإنسان لا تعني أي خيار يغرينا، بل تعني الخيارات التي تؤدي إلى نضوج قدراتنا البشرية. مذهل، أن يؤجل الرضا قصير المدى بمنظور كيركيغاردي: الحرية هي «السكينة على الدوام».

بطبيعة الحال، جيمس هو من أخذ الرعب والضجر خارج المدارس وجعل التعليم أكثر فائدة، كما هو ظاهر بوضوح في محادثاته المبكرة حول «الاهتمام» و«الانتباه»[2]. لكن هو يعلم أن التعلم الهادف، باعتباره حياة ذات مغزى، يتطلب جهدًا وانضباطًا. سِرُّ الحرية في التعليم (وكذلك هدف التعليم)، أشبه بِسِرِّ الحرية في الحياة، أي إنه سِرُّ القدرة على التحكم في الجهد العقلي. إن وجهة النظر التي تساوي الحرية في التعليم أو الحياة مع غياب البنية الواعية (من قِبل الطلاب والمعلمين) تجعل الحرية في حبوب الإفطار السكرية. إن جيمس، مثل خبراء التغذية المعاصرين، يشير إلى أن بعض الجمهور الأمريكي قد خُدِعَ.

إن تناقضات الحرية والبنية، كتلك المتعلقة بالمعرفة الموضوعية والذاتية، تسود التعليم الأمريكي وتكمن وراء المعارك الحالية بين التربويين «العلميين» و«الإنسانيين». يقدم جيمس أساسًا للتوليفات الفلسفية التي تتجاوز الانقسامات السطحية التي ابتليت بها الحركات التعليمية في أمريكا اليوم، لذلك سيكون من مصلحتنا أن نبحث في المنابع القديمة وأن نعود ونختبر قوتها العتيدة انطلاقًا من وليام جيمس في التعليم[3].

(1) John Wild, ***The Radical Empiricism of William James***, pp. 278-80.

(٢) الفرق بين الاهتمام والانتباه، هو أن الاهتمام هو إعطاء الرعاية وتلقيها من قبل شخص ما، بينما الانتباه يتطلب تركيزًا عقليًا، الاهتمام (قابل للعد) أي أن هناك شيء ما يهتم به المرء، في حين يكون الانتباه (قابلًا للحساب)، فعلًا أو ملاحظة تعبر عن القلق. (المترجم).

(٣) لقد عُدلت هذه العبارة بشكل كلي ووضعها في نظم آخر يتوافق مع مراد المؤلف في الأصل، وبالتالي رغم التدخل في الترجمة إلا أننا تمسكنا بالمعنى المقصود وهو ما وضعناه في المتن. أما عما كتب في الأصل لقد كان كالتالي: «سيكون من مصلحتها أن نحفر ونخرج الزجاجات القديمة من القبو، واختبار عتاقة قوية أكثر لوليام جيمس في التعليم». باللغة الأصلية:
«It would be to our benefit to dig the old bottles out of the cellar and experience a more full-bodied vintage of William James on education», Ronald L. Podeschi, William James and Education, p. 229.